رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

منارات
manarat

العدد (4476) السنة السادسة عشرة - الأربعاء (24) تموز 2019

WWW. almadasupplements.com

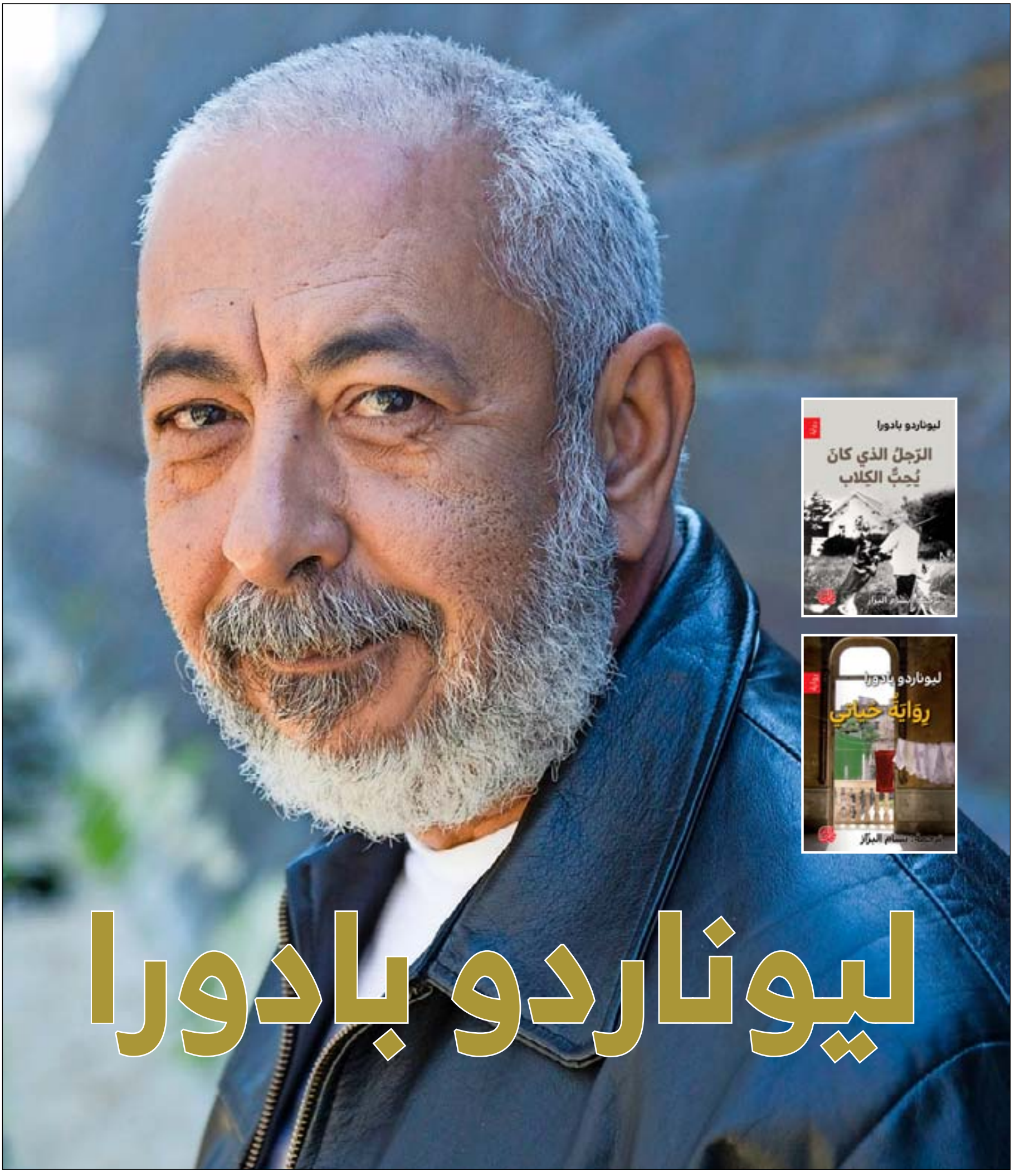

ليوناردو بادورا

د. بسّام البزّاز

وأنا أترجم رواية الكوبي ليوناردو بادورا "الرجل الذي كان يحبّ الكلاب" التي صدرت مؤخرا عن دار المدى، والتي تروي، بين تاريخ وخيال، قصّة اغتيال الزعيم السوفييتي ليون تروتسكي في المكسيك عام ١٩٤٠، كانت تتوزعني مشاعر كثيرة متناقضة.
هل كان ذلك البلشفي المطرود والمطارد ثمّ القتيل يستحقّ ما شعرتُ نحوه من تعاطف؟
ربّما كان انحيازي العاطفي والإنساني موجها نحو عائلته أكثر من انحيازي إليه.
فهو قد أتى من الأوزار ما يوازي العقاب الذي ناله.

الستالينية والتروتسكية في الميزان

في رواية: الرجل الذي كان يحبّ الكلاب

صحيح انّه حمل، وهو بعدُ شاب، روحه على راحته ثائرا مؤمنا بمبادئ سامية حالما بغد ومستقبل خال من الظلم والاستغلال والقمع لكنّ التجربة والمحك والسلطة والتناحر عليها ما لبثت أن قادته إلى عسلها المر وثمرتها المحرمة.

هو، في عزلته التي رسمها له بادورا، يحاسب نفسه. وأحسبُ أنّه حاسب نفسه على ما بدر منه يوم كان في القمة آمرا ناهيا بالسلطة التي يمسك بها وبالجيش الجرار الذي أسسه وبالجهاز السرّي إلى كان هو مؤسسه.

كنتُ سمعتُ باسم تروتسكي، أوّل ما سمعتُ، في منتصف أعوام الستينات من القرن الماضي، وأنا بعدُ طالب في المرحلة المتوسطة. كان أبي اعتاد، منذ نهاية الأربعينات، أن يضمّ إلى مكتبته أعدادا من مجلة الهلال المصرية المعروفة. أذكر أنّني رأيتُ، وأنا أقلّب واحدا من تلك الأعداد، رسما تصويريا باللون البرتقالي يظهر فيه رجل مرعوب ينظر، بيدين مرفوعتين، إلى فأس تهوي على رأسه. لا أذكر مضمون الموضوع، لكنّي أذكر التعليق على الرسم. منذ ذلك الوقت عرفتُ أنّ زعيما من زعماء الثورة البلشفيّة العظمى، يدعى تروتسكي، اغتيل في المكسيك بدفع وتدبير من زعيم آخر من زعماء تلك الثورة العظمى.

في أيلول الماضي كلّفتني "المدى" بترجمة رواية "الرجل الذي كان يحب الكلاب" للروائي الكوبي ليوناردو بادورا التي تروي في جوهرها قصة اغتيال القائد البلشفي على يد الإسباني رامون ميركادير، بأمر وتخطيط من ستالين: ربّان الثورة العظيم و "حفّار قبرها".

فالقصّة في جوهرها هي ما ذكرت: كيف تمكّن ستالين من عدوه اللدود تروتسكي بعد أن جرده من سلطاته ونفاه، أولا خارج الحدود، ثمّ طارده وضايقه ودفع به شيئا فشيئا عن مركز رسم السياسات في أوربا والعالم وصولا به إلى أقصى بقاع الأرض ليقتله هناك بيد شاب إسباني غُسل دماغه وبُرمج على مدى ثلاث سنوات؟

ذلك هو الجوهر وتلك هي الفحوى.

لكنّ الرواية تقع في ما يقرب من ٦٠٠ صفحة.

فكيف لرواية تسرد حادثة، أو حتّى سيرة حياة، أن تمتد كلّ هذا الامتداد؟

الرواية هي في الواقع روايتان أو ثلاث، فضلا عن أجزاء وشظايا من سير وحيوات:

– قصّة القتيل: ليف دافيدوفيتش تروتسكي
– قصّة القاتل: رامون ميركادير دل ريو
– قصّة الراوي المزعوم: إيبان كارديناس ماتوريل
– نتف من قصص أبناء وبنات وأمهات وأزواج وخبراء ومخابرات وعملاء وساسة وكلاب! نعم أصناف وأجناس من الكلاب، لأنّ جميع من في الرواية أغرموا بالكلاب:
– القتيل وحفيده الصغير
– القاتل وأخوه الصغير أيضا
– الراوي (هذا كان نصف بيطري وشغوفا وعارفا بالكلاب)

مع ذلك فالمقصود بالرجل الذي كان يحب الكلاب هو القاتل: رامون ميركادير، وإن أوحت صورة تروتسكي مع كلابه، التي تظهر على غلاف الرواية، بنسختها الإسبانية، والتي ظهرت في ترجمة المدى، بأنّه هو المقصود بالعنوان.

فالرواية، إذن، ثلاث روايات. أو بالأحرى ثلاثة خطوط، ثلاث حيوات بشريّة، متوازية متداخلة، لكن بتواريخ مختلفة: تبدأ الأولى منفردة من عام ١٩٢٩، حين نفي ليف دافيدوفيتش من بلده. وتبدأ الثانية من عام ١٩٣٨، حين عُرضت على رامون ميركادير فكرة القيام بعمل يدخله التاريخ. أمّا الثالثة، وهي التي تحكي القصّة كاملة، فتبدأ من عام ١٩٧٧، حين التقى القاتل بالراوي في أحد شواطئ كوبا صدفة ليستودعه سرّه وقصّته.

والرواية هذه هي مزيج من القصّة Story والتاريخ History. خيال وحقائق. أسماء حقيقية لشخصيات تاريخيّة لاعبة، لها تاريخ ولادة وتاريخ وفاة. لها أفعال ولها أقوال. لكنّ فيها من الخيال ومن المعالجة الدرامية ما يسدّ نقص المعلومة ويعوّض غياب المشهد والوثيقة، كما صرّح بذلك المؤلف.

والرواية، بعد ذلك، عرض، لا لحياة شخص أو أشخاص، بل لطرف مهمّ من التاريخ الحديث: تاريخ الاتحاد السوفييتي وتاريخ أوربا وتاريخ كوبا. ومع التاريخ السياسة. ومع السياسة الحروب. ومع الحروب المعاهدات والاتفاقات والتوافقات والصفقات والخيانات والطعن في الظهر والغزو من دون سابق إنذار وقضم البلدان وخيانة الشعوب بعد اللعب عليها وإيهامها بمعسول الكلام وحلو الوعود.

صحيح أنّ الحدث يتصل باغتيال سياسي. لكنّ وراء الاغتيال سياسة واستراتيجيّة وهوسا وتنظيفا وتمهيدا للتربة باغتيالات وإعدامات وتصفيات داخل البيت وعلى عتبته، وبعيدا بعيدا عنه.

صحيح أنّ الحدث يتصل بفرد، لكنّ الوصول إلى ذلك الفرد كان يستدعي الوصول إلى العشرات والمئات والآلاف سواه. لأنّ الهدف أسمى من الأرواح. ولأنّ الغاية أبعد من العدل. إنّها السلطة. سلطة الفرد: القائد–الضرورة. الزعيم الأوحد. الربان العظيم. المارد الجبّار. القاهر المغوار.

الرواية، بعد كلّ ما قلنا، ترسم صورة واضحة عن كواليس السياسة ودهاليزها، بعيدا عن كلّ شعور ومنطق. إنّها سياسة الروبوتات الذكيّة– الغبيّة. سياسة الكعكة التي تقطع بغض النظر عن الزينة والفواكه التي عليها. العقول التي تضع الهدف والغاية ثمّ تعصب عيونها عن السبيل وما يكلّفه من تضحيات وأرواح. ومن دون اعتبارات معنوية أو أخلاقيّة: إنّها سياسة النفوذ والقوة وليّ الأذرع وكسر العظام والأنوف والرؤوس. سياسة الأنانيّة والتفرد وصناعة المجد الشخصي الذي يدخل صاحبه من أوسع أبواب التاريخ، ليلقي به، من بعدُ، إلى مزابله.

استمتعتُ بالترجمة أيّما استمتاع، على الرغم من طول القصّة وتشعباتها.

واستمتعتُ برفقة شخوصها، على ما في الكثيرين منهم، أو معظمهم، من شرّ واستهتار (يبدو أنّ الشرّ هو ما يصنع الرواية والقصّة والحدث. فما من قصّة تبنى على خير تام. ولا على نصف خير. ولا على ربع خير. لا بدّ للشر أن يشغل ٩٠٪ من أيّة قصّة). وتعاطفتُ مع المنفيّ، مع نتاليا زوجته على نحو خاص، وهي تجاهد من أجل أسرتها: بين زوج مطارد مهدد تشاركه حتّى لحظات الموت المحدق به، وأبناء موزعين مهددين في أمنهم لا تدري متى يأتيها "خبر" أحدهما أو كليهما. خفتُ مع خوفهم. وقلقت مع قلقهم. وسخطتُ على مطارديهم وطالبي دمائهم. وبكيتُ مع بكائهم.

مع ذلك ما زلتُ أظنّ أنّ للسياق التاريخي قولا آخر وحكما لا صلة له بالعاطفة أو بالقصص، وهذا ما تقع مسؤولية بيانه على المؤرخين الذين يحسبون الحالة وفق معطيات لا أتوفر عليها وموضوعية أعترف أنّني لا أمتلكها.

صحيح أنّ الحدث التاريخي صار بعيدا عنّا زمانيا، لكنّه ما زال، بلا شك، يمثل قطعة مهمة من القطع المعروضة في "فيترينات" متحف التاريخ المعاصر الحديث.

ليوناردو بادورا.. مواطن هافانا الكوني

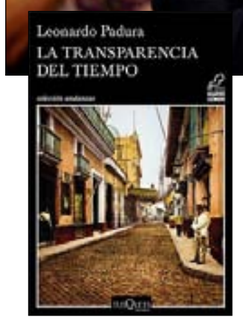

تعتبر رحلات ليوناردو بادورا كناية عن محطّات رسوّ متتالية. وإذا ما غادر الكاتب الكوبي هافانا، مسقط رأسه، فمن أجل أن يحاضر يومًا في جامعة «فلورنسا» أو لينال جائزة في «بيروجيا»، (إيطاليا)، أو ليشارك في لقاء أدبي (في «نانسي» – فرنسا، الذي يعدّه الصالون الأدبي وكان هذه السنة حول كوبا). وعلاوة على ذلك، فإنّ للكاتب أن يمرّ بباريس، في إحدى محطّاته، من أجل أن يتحدّث عن كتابه الأخير «ما كان يرغب في حدوثه»، وهو كناية عن ثلاثة عشر نصًّا تمتدّ على عشرين سنة.

أنطوان أبو زيد

إنّ الناظر في أعمال الكاتب الكوبي بادورا الغزيرة – والمتأتية من كونه صحافيا بدوام جزئي، وصيّاد حكايات من خلال الأغاني الشعبية الكوبية، وكاتب سيناريو الأفلام لرواياته البوليسية – يجد فيه من الطاقة والحيوية اللتين نستشعرهما في هافانا نفسها. فمن هذه الشوارع المشبعة رطوبة والتي تدبق حرارتها الأبدان، ومن ضوضاء سياراتها، وتشنّجات النساء فيها وصراخ الرجال، يستلهم بادورا قصصه ورواياته.

وعلى الرغم من هويته المزدوجة الإسبانية .الكوبية، فإنّ للمؤلّف شعورًا بالانتماء الى بلده الأصلي كوبا، بل إنّ شعوره بالانتماء الى بلده، مسقط رأسه مانتيلا، يكاد يكون هو المرجح، لأنّه، على ما يشرح، من الذين يمتّون بصلة أرضية بركن من أركان المدينة هافانا، «وهي مسقط رأس أجدادي، وجدي، ووالدي وحيث ولدتُ أنا بالذات، وحيث كان يمكن أن يولد أبنائي لو كان لي أبناء. وحيث لا أزال أقيم».

صدمة الحرب الأهلية

وشأن كلّ كوبي، أراد ليوناردو أن يكرّس نفسه للعب البايزبول، في البداية. ولكنّه تحوّل الى الصحافة عام ١٩٨٠. وعاش سنة كاملة في أنغولا، إبان الحرب الأهلية فيها، وعاد منها بصدمة هزّت كيانه. ففي الكتاب «ما كان يرغب في حدوثه» قصّتان وهما «بوابة آلكالا» و «حدود الحب»، يعود فيهما المؤلّف إلى ما كان قد عاشه وخبره هناك، في أنغولا. ولدى عودته الى البلاد، كان عليه أن يختار، إمّا أن يبقى في الجزيرة، في ظلّ نظام متسلّط، وإمّا أن يمضي بقية حياته خارجًا. وكانت لبادورا أفكار نيّرة بيّنة، إذ كان يقول: «كنتُ مدركًا أنه بمجرّد مغادرتي كوبا، سوف يتسنى لي العيش بأحسن حال، بالتأكيد، ولكن لن تتاح لي الكتابة. أما في كوبا، فسوف أحيا على نحو سيّئ للغاية، إلاّ أنني سوف أظلّ أكتب. وكان الخيار الثاني هو الأرجح». وما دام أنّ كوبا والولايات المتحدة الأميركية التزمتا بمفاوضات في ما بينهما، فإنه أبدى أسفه من بطء هذه المفاوضات وما يترتّب عنه من التمهّل في إنهاء الحصار الاقتصادي على الشعب الكوبي، والكفيل بتطبيع العلاقات بين البلدين.

لقد كانت مسألة المنفى ولا تزال تشيع في أعمال الكاتب الكوبي ونصوصه كافة. وكانت روايته المسماة «النخلة والنجمة» (٢٠٠٣)، تدور أحداثها حول شخصية خوسيه ماريا هيريديا (١٨٣٩-١٨٠٣)، وهو سميّ أديب بارناسي آخر (من أصل كوبي أيضا) كان يُعدّ أعظم شعراء البلاد، وقد أجبر على مغادرة بلاده بحجّة نزعته الاستقلالية الواضحة. في روايته «النخلة والنجمة» يستغرق المؤلّف في تأمّل مسألة المنفى على نحو مستفيض، حاصرا إيّاها في القرنين اللذين يفصلان ما بين الشاعر وبادورا: وكانت فصول الكتاب الممتدة الى الزمن المعاصر قد اقتبست للسينما من قبل لوران كانتت والمؤلّف نفسه، وكان الفيلم بعنوان «العودة الى إيتاكا» قد ظهر على الشاشة العام ٢٠١٤.

مرايا التاريخ

إنّ أكثر ما يستهوي المؤلّف هو أن يبسط مسارده على مرايا التاريخ. فكان كتابه «الرجل الذي كان يحبّ الكلاب»، والصادر عام ٢٠١١، هو الرواية الأشدّ تأثيرا، من هذه الناحية. وفي هذه الرواية يعاود المؤلّف رسم حياة ليون تروتسكي، من العام ١٩٢٩ الى يوم مقتله، في المكسيك عام ١٩٤٠، والمتقاطعة مع حياة قاتله، الشيوعي الإسباني رامون ميركادير، بالإضافة الى شخصية ثالثة باسم إيفان، والذي وان كان بيطريا في الواقع، فإنه شاء أن يكون الكاتب الذي يدوّن الوقائع ويروي الأحداث. وبالعودة الى الكتاب الجديد الصادر للمؤلّف عن دار «ميتاييه» (٢٠١٦) وهو بعنوان «ما كان يرغب في حدوثه»، وهو المقتبس من مارك أوريليوس، فإنه يتضمّن مسارد من كلّ الأنواع، والمسائل والذكريات التي كانت ترد في خاطر ليوناردو، من ولادة دعوته الى الكتابة حتّى بلوغه سنّ الرّشاد. ينطوي الكتاب إذاً، على ثلاثة عشر مسردًا، تمتد لعشرين سنة، يتقمّص فيها الكاتب شخصياته الهافانيين، المنكسرين، والعشّاق، والأسرى لماضيهم الذي لم يكن لهم يد فيه مطلقا، ويبثّ في نفوس قرّائه قدرًا من مشاعر الحنان والرقّة والأسى عاليا. وإليك أمثلة: فهذه السيدة العجوز «آديلاييد والشاعر» والتي تتهيّأ لأن تقرأ قصّتها التي ألّفتها على الكاتب الشاب ذي الصيت الواسع، يوم الخميس هذا، في مشغل الكتابة الذي يملكه. أو ننظر الى شخصية أخرى تدعى رافايلا، هذه التي حُكم عليها بأن تظلّ تؤدّي على البيانو الألحان نفسها، في أحد مطاعم هافانا، فتكتشف، ذات يوم، إذ تتأمل يديها، أنّها باتت عجوزًا.. ولسوف نجد في الكتاب معرضًا لقضايا أخرى، مثل الجنس والمخدّرات، والاستهلاك المفضي الى هلاك الحياة الروحية، هذه التي يستسهلها الشباب الكوبي. وبعد، هل يسعنا اعتبار باندورا كاتبا كوبيا، محدودَ الأفق بالمكان، ومحلّي الطابع، أم تراه، في محلّيته واستغراقه في تاريخ بلده ومشاغله إنما يخاطب الإنسانية جمعاء، وكلّ زمان ومكان وإنسان؟

عن/ (السفير)

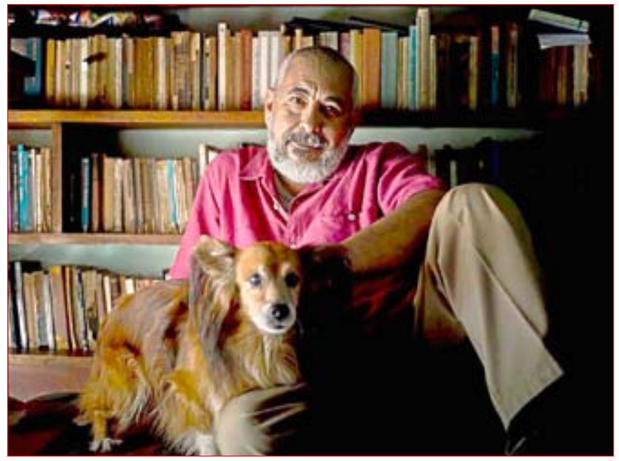

ليوناردو بادورا بين تروتسكي وتفاصيل حياة مثيرة

مباشرة بعد وفاة الزّعيم الكوبي فيدل كاسترو ظهرت في الصحافة العالمية مقالات مُستفيضة تحكي عن صداقاته الكثيرة ببعض كبار أدباء أميركا اللاتينية، أو لقاءاته بأدباء عالميين من أوروبا وأميركا مثل سارتر وهيمنغواي. لكنها، في المقابل، غفلت عن ذكر وضعية الأدب الكوبي المعاصر في ظّل حُكمه الذي استمرّ نصف قرن، أو لم تُسلّط الضّوء بقدر كاف على أدباء كوبا المحليّين، لا سيًّما الّذين عايشوا هذا النظام من الدّاخل، أو تعايشوا معه عن قرب على الأصحّ، طوال هذه السنين.

نجيب مبارك

من بين هؤلاء يلمعُ بقوّة إسم ليوناردو بادورا فوينتس، أو ليوناردو بادورا اختصاراً، الذي يُعدّ اليومَ أحدَ أشهر كتّاب الجزيرة الكوبية في العالم. تُرجمت أعماله الروائية إلى لغات عدّة وتحظى بتقدير وحضور كبيرين في الأدب المكتوب بالإسبانية، إذ نال عنها جوائز مرموقة في الداخل والخارج، أبرزها بالتأكيد جائزة "أميرة أستورياس" الرفيعة، والتي تسلّمها العام الماضي من العاهل الإسباني في مدينة أوفييدو.

على عكس عدد من الأدباء الكوبيين، والذين اختاروا المنفى بعد نجاح الثورة، فضّل ليوناردو بادورا البقاء في كوبا للعيش والكتابة، على الرغم من الرّقابة الشديدة والضغوط التي مارسها النظام لعقود طويلة على حرية التعبير والإبداع. كان قراراً شجاعاً من كاتب لم يستسلم لحمّى الهروب والنضال من الخارج، مراهناً فقط على الإبداع الأدبي وسيلة للتعبير والاحتجاج. يُبرّر بادورا هذا الاختيار: "إن الإحساس بالانتماء لا يربطني فقط ببلدي، بمدينتي (بسُور كورنيشها)، أو بالحيّ (أعيش في المكان حيثُ ولدتُ)، ولكن يذكّرني أيضاً بشيء أكثر تعقيداً: سأظلّ دائماً كاتباً كوبياً، حتى لو عشتُ في مكان آخر، سأكون واحداً من هؤلاء الكوبيين الذين لن يستطيعوا أبداً مغادرة كوبا".

وُلد هذا "الكاتب الكوبي المُقيم" سنة ١٩٥٥ في حيّ مانتيّا، جنوب العاصمة هافانا، من أب كان يعمل تاجراً ثمّ سائق حافلة بعد الثورة الكوبية. درسَ الأدب الإسباني والأميركي وأيضاً اللغة اللاتينية في كلية اللغات بجامعة هافانا. بدأ صحافياً في ملحق جريدة "خوبينتود ريبيلدي"، حيث نشر مقالات أدبية ونقدية وريبورتاجات جريئة، تغوص عميقاً في بؤس الواقع الكوبي، سرعان ما منحته متابعة وتقديراً من طرف القرّاء، كما جرّب كتابة السيناريو، وأعدّ خلال هذه الفترة سيناريو فيلم حول موسيقى السالسا.

لكن مسيرته الأدبية لم تبدأ فعليّاً إلّا في عام ١٩٩١، بتوقيع أولى رواياته البوليسية، والتي اتّخذت بالأساس من شخصية المحقّق "ماريو كوندي" الخياليّة بطلاً لها. وقد افتتح هذه السلسلة برواية "الماضي الكامل"، والتي نُشرت بالمكسيك قبل أن تصدر في كوبا ثلاثَ سنوات بعد ذلك، وهي جزء من رباعية روائية بعنوان "الفصول الأربعة". لم يكتف بادورا بالروايات البوليسية، بالرّغم من أنّها منحته شهرة واسعة داخل كوبا وفي أميركا اللاتينية، بل كتب روايات أخرى أكثر تعقيداً، تستلهم التاريخ عموماً، وتاريخ كوبا على الخصوص، أو تضع فترات منه إطاراً لأحداثها، لقيت هي أيضاً نجاحاً كبيراً لدى النقاد والقرّاء على السّواء. كما أصدر دراسات وقصصاً قصيرة وواظب على كتابة السيناريو لحساب مخرجين أجانب، بل وساهم في تحويل بعض من أعماله إلى أفلام سينمائية وتلفزيونية.

الرّجل الذي أحبَّ الكلاب

لا شكّ أن الرواية التي كرّست شهرة بادورا ومهّدت طريقه نحو العالمية هي روايته "الرجل الذي أحبَّ الكلاب" (٢٠٠٩). تحكي هذه الرواية قصّة حياة الزعيم الشيوعيّ ليون تروتسكي، مُؤسّس الجيش الأحمر الروسي ومفوّض الشعب للشؤون الخارجية، منذ ١٩٢٩ حتى اغتياله بالمكسيك يوم ٢١ أغسطس/آب ١٩٤٠، في تداخل مع حياة قاتله الشيوعي الإسباني رامون ميرثيدير، والذي جنّده الكي.جي.بي بأمر من ستالين، وكذلك قصة حياة إيفانَ، البيطري الكوبي الذي يرغب في أن يصير كاتباً، والتي تجري في الزمن الحاضر. هي ثلاثة أزمنة، ثلاث حكايات متشابكة وثلاث شخصيات تسعى كل واحدة لتحقيق حلم ما. لكن ما يهيمن على الرواية هو مساران متكاملان: حياة تروتسكي في منفاه بعد طرده من روسيا، وقصة إعداد وتكوين العميل السرّي المكُلّف باغتياله. ومن وراء هذين المسارين، تغطّي الرواية القرن العشرين بالكامل تقريباً، وهي تعالج في العُمق فشلَ التّجربة الاشتراكية في كوبا.

لقد كتبها بادورا تحت تأثير مثله الأعلى، الرّوائي الكوبي الأشهَر أليخو كاربنتر، صاحب رواية "قرن الأنوار". فعلى منواله، يستحضر بادورا الماضي القريب أو البعيد، من أجل تسليط الضوء على الحاضر بشكل أفضل. والأسئلة العميقة التي تطرحها شخصياته الرّئيسة، بغضّ النظر عن المرحلة التاريخية، هي أسئلته الخاصّة ككاتب، وأسئلة باقي الكوبيين الذين انجرفوا، على مدى أكثر من نصف قرن، مع تاريخ هذا البلد القاسي، والذي ما فتئ يتجاوزهم ويسحقهم في كلّ مرّة. تشهد هذه الرواية على براعة بادورا في التّحقيق والتوثيق، قبل صياغتها فنّياً بأسلوب ثريّ وممتع. يقول: "في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٩ بالمكسيك، صُدمت بعد زيارة البيت المحصّن لتروتسكي في كايوكان. كانت هذه نقطة الانطلاقة الفكرية لروايتي الجديدة". إنها انطلاقة صحيحة بالفعل، لأنه كان من المستحيل قبل سقوط جدار برلين الخوض في أمور مشابهة. لقد اختار بادورا هذه اللحظةَ بالذات للتحقيق في حادثة اغتيال زعيم شيوعي كبير مثل تروتسكي، وإعادة سرد حيثياتها ووقائعها في رواية بديعة، قال عنها الكاتب والناقد الروائي المكسيكي ألفارو إنريغي: "إذا كانت رواية "الحب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارثيا ماركيز قد حوّلت الرواية الرومانسية إلى أدب، فإن الروائي الكوبي ليوناردو بادورا - المعروف بأعماله البوليسية المثيرة للتشويق - قد وجد لنفسه مدخلاً إلى قانون الحداثة الأميركية اللّاتينية من خلال كتابة رواية عن شخصيّة روسيّة".

ماريو كوندي، الأنا الآخر لبادورا

ماريو كوندي شرطيٌ سابق في هافانا، لا يمتُّ بصلة لصورة الشرطة الكوبية التي تخدم الثورة، يعيش وحيداً ويمتهن تجارة الكتب المستعملة، محقّق مستقلّ في الجرائم حسب الطلب، يدافع عن الضعفاء والمظلومين، يحبّ معاقرة الخمر كأيّ شخص حزين، ولديه حنين دائم لحلم قديم: أن يصير كاتباً يوماً ما. لقد رأى كثيرون في ماريو كوندي الأنا الآخر لمبدعه ليوناردو بادورا، وهم على صواب. يقول بادورا عن بطل رواياته البوليسية: "منذ البداية، يسّرَ لي كوندي مهمّة الوسيط بين الواقع الذي أردتُ أن أعكسه وأثر هذا الواقع في الأدب. إنها طريقتي في رؤية الواقع الكوبي، في استيعابه وتفسيره لذاتي عبر كل هذه القصص. حتّى إنّني تعمّدتُ أن يشبهني كلّما تقدّمَ في السنّ".

على امتداد ثماني روايات بوليسية، كان البطل ماريو كوندي يدرسُ بعناية الواقع المعاصر للمجتمع الكوبي، يدرس قيم الناس وقناعاتهم وأحلامهم وأوهامهم، لكي يُلقي الضوء على أخطاء المسلسل الثوري برمّته، ويكشف أكاذيب وتلاعب بعض المسؤولين والأعضاء المقرّبين من الدائرة الحاكمة. لقد نجح بهذه الطريقة، تدريجياً، في تقديم رؤية مختلفة عما كانت تُروّج له الدولة عبر وسائل الإعلام الرّسيمة، تُساندها في ذلك الرواية البوليسية الثورية السائدة. إنّ هذه الرؤية العميقة، وهي تنتقد بشدّة الواقع الكوبي، كانت تكشف علناً لحظات من تاريخ البلاد، تعمّدَ الخطاب الرسميّ تزويرها أو حذفها نهائيّاً من مقرّرات الدراسة.

عن الحوار المتمدن

ليوناردو بادورا.. الشهرة التي جاءت متأخرة

ينسى ليوناردو بادورا في هافانا أنه أشهر الكتاب الكوبيين في العالم... فهذا الأديب الستيني يعيش في الظل بسبب التعتيم المتعمد من وسائل الإعلام المحلية ما جعله شخصاً شبه مغمور شغله الشاغل التفكير بمستقبل كوبا.

في مطلع فترة بعد الظهر هذه، كان "ليو" بادورا قد دخن خمس سجائر وارتشف خمسة أكواب من القهوة ككل مرة ينكب فيها على الكتابة صباحاً. ولدى مغادرته مكتبه، يبدو مرتاحاً إزاء فكرة إحياء التحري الشهير ماريو كوندي في روايته المقبلة "شفافية الوقت".

ويعيش هذا الرجل البالغ من العمر ٦٣ عاماً منذ سنوات عدة مع زوجته لوسيا في منزل متواضع من طبقتين يحمل اسم والدته "فيلا أليسيا".

ويوضح الكاتب "من المهم بالنسبة لي القيام بأمور مختلفة إذ إنني لا أتقبل الكسل".

وقد ذاع صيت ليوناردو بادورا في العالم أجمع بفضل قصة "الرجل الذي أحب الكلاب" التي تروي نهاية المُثل الشيوعية من خلال اغتيال ليون تروتسكي.

وحققت الرواية نجاحاً عالمياً إذ ترجمت إلى عشرين لغة. ويمكن تاليا لليوناردو بادورو الحائز الجنسية الإسبانية أن يعيش حياة أفضل في اسبانيا أو الولايات المتحدة.

لكنه يؤكد أنه لا يمكنه الكتابة سوى في مسكنه في حي مانتيا الزراعي في ضواحي هافانا، إذ يشدد على أنه كاتب كوبي يعيش في كوبا ويعكس واقعها.

وهو يشعر بالارتياح في مانتيا حيث يتنزه بسراويل قصيرة بعيداً عن شكليات العيش في وسط المدينة، في حين ترغمه التزاماته إزاء الناشرين على تمضية ثلث السنة في الخارج.

ويؤكد ليوناردو بادورا أنه أصبح كاتباً في سن متأخرة بعد بلوغه الأربعين بدافع من "روح المنافسة" إذ لم يكن يتحمل رؤية زملاء أو رفاق له في الجامعة يكتبون فيما هو عاجز عن ذلك.

ورغم نيله جوائز عدة خارج كوبا، يعاني بادورا تهميشاً من وسائل الإعلام الكوبية الخاضعة كلها لسيطرة الدولة، إذ أن رواياته التي تعكس جوانب مظلمة من الواقع الكوبي تثير انزعاجا لدى السلطات.

وهو يقر بأنه "شبه مرئي" على القنوات الرسمية الكوبية بسبب ندرة إطلالاته الإعلامية.

ولا تتخطى نسخ كتب بادورا الصادرة في كوبا عتبة عشرة آلاف كتاب في المجموع بحسب الكاتب، في وضع مشابه لما يعيشه الكتاب "المثيرون للجدل" في الجزيرة بفعل الرقابة المشددة على أعمالهم التي تدفعهم إلى نشر أعمالهم بشكل محدود.

وقد أعيدت صياغة النسخة الإسبانية من كتاب "الرجل الذي أحب الكلاب" حوالى خمسين مرة في الخارج، كما أن سلسلة مغامرات ماريو كوندي اقتبست في مسلسل يحمل عنوان "أربعة فصول في هافانا" من انتاج مجموعة "نتفليكس" الأميركية العملاقة في مجال البث التدفقي.

ويدرك ليوناردو بادورا أنه محظوظ لكونه لم يكن قد بدأ الكتابة في فترة السبعينيات التي كانت تشهد "كم أفواه وتهميشاً" للفنانين المثليين أو أولئك الذين كانوا ينتقدون الثورة التي قادها فيدل كاسترو.

ويؤكد الكاتب أنه واحد من "المشتبه بهم الاعتياديين". فخلال عمله كصحافي بين سنتي ١٩٨٠ و١٩٩٥، عمد النظام الكوبي إلى تصنيفه كشخص ذي "مشكلات عقائدية" مع السلطات خلال كتابته في مجلة ثقافية. عندها تم ارساله للكتابة في صحيفة تابعة للحزب الشيوعي بهدف "إعادة تثقيفه".

وعلى رغم هذه العقوبة، يؤكد إنه استمر في كتابة "ما يريده" وتحدى المحظورات كما الحال في مدونات مخصصة لكوبا في الصحف العالمية.

لكن على رغم النقص في التقدير في كوبا والقلق على المستقبل، يؤكد الكاتب إنه لن يترك يوما جزيرته لسبب بسيط هو أن "الكاتب ليوناردو بادورا ليس له وجود من دون كوبا".

على عكس عدد من الأدباء الكوبيين، والذين اختاروا المنفى بعد نجاح الثورة، فضّل ليوناردو بادورا البقاء في كوبا للعيش والكتابة، على الرغم من الرّقابة الشديدة والضغوط التي مارسها النظام لعقود طويلة على حرية التعبير والإبداع. كان قراراً شجاعاً من كاتب لم يستسلم لحمّى الهروب والنضال من الخارج، مراهناً فقط على الإبداع الأدبي وسيلة للتعبير والاحتجاج. يُبرّر بادورا هذا الاختيار: "إن الإحساس بالانتماء لا يربطني فقط ببلدي، بمدينتي (بسُور كورنيشها)، أو بالحيّ (أعيش في المكان حيث ولدتُ)، ولكن يذكّرني أيضاً بشيء أكثر تعقيداً: سأظلّ دائماً كاتباً كوبياً، حتى لو عشتُ في مكان آخر، سأكون واحداً من هؤلاء الكوبيين الذين لن يستطيعوا أبداً مغادرة كوبا".

وُلد هذا "الكاتب الكوبي المُقيم" سنة ١٩٥٥ في حيّ مانتيّا، جنوب العاصمة هافانا، من أب كان يعمل تاجراً ثمّ سائق حافلة بعد الثّورة الكوبية. درسَ الأدب الإسباني والأميركي وأيضاً اللغة اللاتينية في كلّية اللغات بجامعة هافانا. بدأ صحافياً في ملحق جريدة "خوبينتود ريبيلدي"، حيث نشر مقالات أدبية ونقدية وريبورتاجات جريئة، تغوص عميقاً في بؤس الواقع الكوبي، سرعان ما منحته متابعة وتقديراً من طرف القرّاء، كما جرّب كتابة السيناريو، وأعدّ خلال هذه الفترة سيناريو فيلم حول موسيقى السالسا.

لا شكّ أن الرواية التي كرّست شهرة بادورا ومهّدت طريقه نحو العالمية هي روايته "الرجل الذي أحبَّ الكلاب" (٢٠٠٩). تحكي هذه الرواية قصّة حياة الزعيم الشيوعيّ ليون تروتسكي، مُؤسّس الجيش الأحمر الروسي ومفوّض الشعب للشؤون الخارجية، منذ ١٩٢٩ حتى اغتياله بالمكسيك يوم ٢١ أغسطس/آب ١٩٤٠، في تداخل مع حياة قاتله الشيوعي الإسباني رامون ميرثيدير، والذي جنّده الكي.جي.بي بأمر من ستالين، وكذلك قصّة حياة إيفان، البيطري الكوبي الذي يرغب في أن يصير كاتباً، والتي تجري في الزمن الحاضر. هي ثلاثة أزمنة، ثلاث حكايات متشابكة وثلاث شخصيات تسعى كل واحدة لتحقيق حلم ما. لكن ما يهيمن على الرواية هو مساران متكاملان: حياة تروتسكي في منفاه بعد طرده من روسيا، وقصة إعداد وتكوين العميل السرّي المكُلّف باغتياله. ومن وراء هذين المسارين، تغطّي الرواية القرن العشرين بالكامل تقريباً، وهي تعالج في العُمق فشل التّجربة الاشتراكية في كوبا.

عن وكالة الانباء الفرنسية

ليورناردو بادورا يكتب «تاريخ طبي لقاتل ليون تروتسكي»

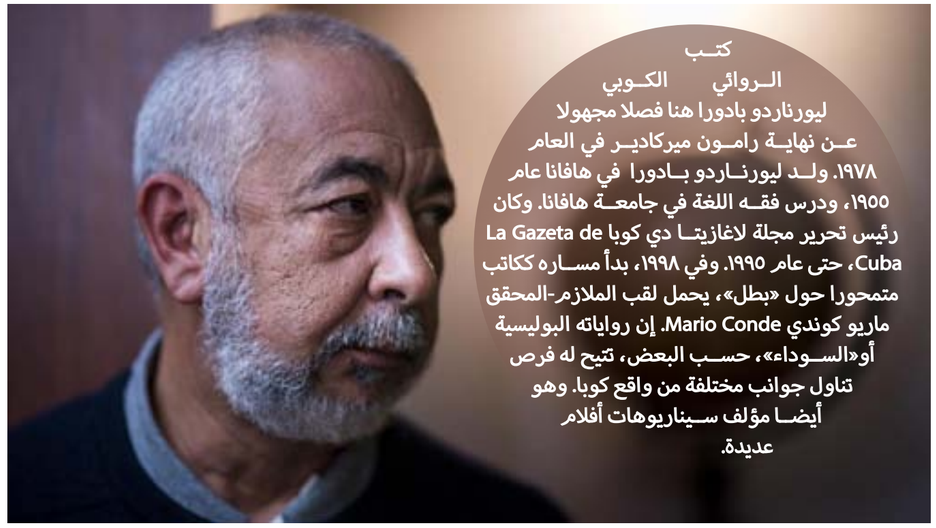

كتب الروائي الكوبي ليورناردو بادورا هنا فصلا مجهولا عن نهاية رامون ميركادير في العام ١٩٧٨. ولد ليورناردو بادورا في هافانا عام ١٩٥٥، ودرس فقه اللغة في جامعة هافانا. وكان رئيس تحرير مجلة لاغازيتا دي كوبا La Gazeta de Cuba، حتى عام ١٩٩٥. وفي ١٩٩٨، بدأ مساره ككاتب متمحورا حول «بطل»، يحمل لقب الملازم-المحقق ماريو كوندي Mario Conde. إن رواياته البوليسية أو«السوداء»، حسب البعض، تتيح له فرص تناول جوانب مختلفة من واقع كوبا. وهو أيضا مؤلف سيناريوهات أفلام عديدة.

إن صيته محدود في كوبا، بفعل إخضاعه لرقابة صارمة إلى حد ما. أما في العالم الناطق بالفرنسية، فكانت بداية شهرته عقب ترجمة كتابه، والمترجم بالفرنسية تحت عنوان Le (النخلة والنجمة)، دار النشر ميتاييه في العام٢٠٠٣. ومن بعد، نشر كتاب (الرجل الذي كان يحب الكلاب)– ٢٠٠٩ باللغة الإسبانية، وفي عام ٢٠١١ عن دار النشر ميتاييه ، وهي عبارة عن رواية مبنية على السنوات الأخيرة في هافانا من حياة رامون ميركادير، قاتل تروتسكي (ليف دافيدوفيتش برونشتاين)، في ٢٠ آب/أغسطس عام ١٩٤٠.

حظي بادورا باهتمام أوسع بعد نشر هذه الرواية. واليوم باتت معظم أعمال بادورا مترجمة إلى اللغة الفرنسية. إن رامون ميركادير –الذي اشتغل عميلا للمخابرات السوفييتية NKVD (المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية) بقيادة ستالين، منحه ستالين «وسام لينين» تقديرا لجريمته– وكان من أصل إسباني و«شيوعيا»، كان يحمل اسما مستعارا، فرانك جاكسون Frank Jacson في المكسيك، و جاك مورنار في فرنسا، في سنوات ١٩٣٠. انتقل، بعد مغادرته السجن في المكسيك عام ١٩٦٠، إلى كوبا وروسيا.

لا ريب أن طبيب الأورام السرطانية، أنخيل أزكو Angel Azcue ، قضى سنوات قبل علمه حقيقة هوية مريض شخّص لديه دون تردد سرطان لوزتين متقدم. لكن من المرجح أن الطبيب لم يكن بإمكانه بأي وجه معرفة هوية هذا الإسباني الأصغر والمسن الذي أتى به مدير المستشفى الدكتور ثويلو مارينيلو Zoilo Marinello ، وقدمه له من أجل تشخيص دائه ومعالجته. وكي يعرف الدكتور أنخيل أزكو في آخر المطاف، يوم ٢١ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٨، من كان في الواقع ذلك المريض الغامض (وستفهمون فيما بعد سبب استعمالي هذا النعت)، كان لازما تلافي جملة صدف بعيدة الاحتمال لدرجة تدفع إلى اعتقاد أن وراء إعدادها وحدوثها قدر أسمى يرمي أن يكشف للطبيب حكاية غريبة ومقلقة.

جرى أول حدث كان لازما لجعل المونتاج فعليا يوم ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر. فقد مات في هافانا رامون ميركادير ديل ريو، المغتال اللامرئي لتروتسكي، بسبب سرطان كان قد اغتيل بمنزله في كويوأكان. كان أنخيل أزكو ولد في إسبانيا، وصل صغيرا جدا إلى المكسيك، ولم ينتقل إلى كوبا سوى بعد عشرين عاما. ومُذاك، ظل هذا الحادث حيا راسخا في ذاكرته، لأنه لم يهز مشاعر أبيه، الجمهوري الإسباني، وحسب، بل أيضا ملايين أشخاص آخرين في العالم.

في أثناء هذه السنوات كلها، لم يسعه أن يعلم بصدد اغتيال ليون تروتسكي أكثر من النزر اليسير المعروف في تلك الحقبة: اسم القاتل (المستعار) كان جاك مورنار، وكان يُزعم أنه مناضل تروتسكوي محبط، رغم أن الجميع كان يعلم بأن ذلك كذبة، وقد اغتال تروتسكي بضربات فأس، مع كثير من سبق الإصرار و الغدر، وبسبب هذه الجريمة كان أدين وحُكم بقضاء عشرين عاما في سجون المكسيك. ربما كانت هالة الغموض والصمت و التواطؤ والكذب هذه المحيطة بشخصية القاتل هي التي جعلت أنخيل أزكو يولي، على مدى سنوات، اهتماما بهذا الرجل. اهتمام حافظ عليه في المكسيك ونقله معه إلى كوبا، مفقودا تقريبا في زاوية بذاكرته، لكنه حي تماما. وكانت تلك الذكرى ماثلة دوما لما صعد إلى الطائرة الأرجنتينية وفتح الجريدة التي واجهته بحقيقة مثيرة: هو، أنخيل أزكو، شهد ذلك القاتل أمامه، وحدثه ولمسه، وكان قد كُلف بإخباره بموته الوشيك.

كان أنخيل أزكو قد احتفظ بذكرى لا تنسى، ذات بعد زوال، لما قدم له ثويلو مارينيلو ذلك المريض. إن كون مدير المستشفى هو بالذات من طلب منه، ومن زملائه الأخرين أطباء الأورام السرطانية مختصي « الرأس والرقبة»، فحص ذلك الإسباني، مريضه، أمر أثار فضول أنخيل أزكو. ثم إن هذا الرجل، الذي كان اعترف شخصيا باستشارته أطباء أخرين كُثر (دون تحديد اسمهم ولا مكانهم) دون تمكنهم من تشخيص سرطان اللوزيتين، رغم أنه مرض لا جدال فيه ومنتشر وكان يقتله، حقيقة أثارت اندهاش فرقة المختصين ورسخت الحدث في ذاكرته. وفي الأخير، كانت ثمة حقيقة أن العلاج الاشعاعي الممكن الذي وصفه أنخيل أزكو وزملاؤه بعد الاطلاع على تفاقم مرضه، لم يقدم له في مستشفى الأورام السرطانية، بل في مؤسسة أخرى. وانتهى هذا الأمر إلى أن رسخ في ذاكرة أنخيل أزكو ذكرى ذلك المريض، الذي كان سيتلاشى، لو جرت الامور على نحو مغاير، بين عشرات ومئات المرضى الذين كان يفحصهم كل عام.

وكانت ثمة أيضا عناصر عديدة تلف طلب مدير المستشفى ستحث ميغيل أنخيل أزكو على إعادة تقييم الوقائع بعد بضعة أشهر، لما اطلع على هوية المريض الحقيقية. وفي الواقع كان الدكتور ثويلو مارينيلو مناضلا شيوعيا قديما، وهو شقيق السياسي وكاتب المقالات خوان مارينيلو، أحد قادة الحزب الاشتراكي الشعبي القديم (حزب شيوعي)، الأكثر شهرة في كوبا. وسيعلم أنخيل أزكو لاحقا بكثير أن رامون ميركادير وأمه، كاريداد ديل ريو Caridad del Rio ، كانا صديقين لبعض هؤلاء المناضلين الشيوعيين الكوبيين القدماء، ضمنهم خوان مارينيلو والموسيقي هارولد غراماتجس Harold Gratmages.. وفيما بعد سيعلم أنخيل أزكو أن كاريداد كانت اشتغلت مع هذا الأخير لما كان سفير كوبا في فرنسا (١٩٦٠-١٩٦٤). كان جليا والحالة هذه أنه لم يكن بوسع ثويلو مارينيلو تجاهل هوية هذا الجمهوري الاسباني الذي نخره السرطان وأن الأمر كان يتعلق بطلب استشارة طبية خاصة.

سنوات عديدة بعد وفاة ميركادير وبعد التعرف على هويته، سيهتز الدكتور أزكو مرة أخرى بسبب عنصر جديد يتعلق بهذه الشخصية المخيفة والغامضة. حدث ذلك في منطقة جبلية وسط جزيرة إسكامبراي، حيث يوجد متحف خاص بـ«محاربة قطاع الطرق»، كما كانت تسمى في سنوات ١٩٦٠ الحرب منخفضة الشدة الدائرة في تلك المنطقة بين العصابات المعارضة للنظام من جهة، و الميليشيات و الجيش الثوري من جانب آخر. كانت ثمة ضمن صور فوتوغرافية أخرى كثيرة بالمتحف، و احدة تظهر فيها مجموعة مقاتلين من «مطاردي العصابات» بها رجل لا يمكن أن يكون، حسب أنخيل أزكو، سوى رامون ميركادير! هل كان ممكنا أن استقر هذا الأخير في كوبا وتعاون مع الميليشيات الكوبية المضادة للعصابات أو مع أجهزة الاستخبارات بينما كان الاعتقاد سائدا أنه يوجد في موسكو؟ ورغم أن البداهة كانت تستبعد هذا الاحتمال، كان الدكتور أنخيل أزكو مقتنعا أن صورة الرجل (الذي لم يُحدد اسمه في شروحات معرض الصور) إن لم تكن لميركادير، فهي حتما لتوأمه.

بعد خمسة وعشرين عاما من وفاة رامون ميركادير، فيما كنتُ مقدما على مباشرة بحوث لكتابة رواية حول اغتيال تروتسكي ستكون بعنوان الرجل الذي كان يحب الكلاب، كان من سوء حظي –ومن حظي– لقاء الدكتور ميغيل أنخيل أزكو. كان سبب هذا اللقاء مؤلما ومثيرا للقلق: أثناء بتر ثؤلول صغير في أنف والدي، اتضحت إيجابية الخزعة التي أجريت تلقائيا، حيث كشفت عن وجود خلايا مسرطنة. فورا تحركت سعيا إلى ما يمكن القيام به من أجل والدي، وكما نفعل عادة في كوبا، كان الخيار الأول هو البحث عن طريقة مباشرة لإيجاد الحل الممكن من خلال مناشدة أصدقاء.

لذلك كاتبت زميلي القديم ورفيق الدراسة خوسيه لويس فيري José Luis Ferrer ، الذي كان يعيش بالولايات المتحدة الأمريكية منذ العام ١٩٨٩، لأن والدته، الدكتورة ماريا لويزا بوخ Maria Luisa Buch ، كانت نائبة مدير مستشفى الأورام السرطانية (تحت إشراف الدكتور مارينيلو) ، وحتى لو كانت والدته توفيت، قد يكون هناك بالتأكيد حي ذلك الاسباني، مريضه، أمر أثار فضول أنخيل أزكو. ثم إن هذا الرجل، الذي كان اعترف شخصيا باستشارته أطباء أخرين كُثر (دون تحديد اسمهم ولا مكانهم) دون تمكنهم من تشخيص سرطان اللوزيتين، رغم أنه مرض لا جدال فيه ومنتشر وكان يقتله، حقيقة أثارت اندهاش فرقة المختصين ورسخت الحدث في ذاكرته. وفي الأخير، كانت ثمة حقيقة أن العلاج الاشعاعي الممكن الذي وصفه أنخيل أزكو وزملاؤه بعد الاطلاع على تفاقم مرضه، لم يقدم له في مستشفى الأورام السرطانية، بل في مؤسسة أخرى. وانتهى هذا الأمر إلى أن رسخ في ذاكرة أنخيل أزكو ذكرى ذلك المريض، الذي كان سيتلاشى، لو جرت الامور على نحو مغاير، بين عشرات ومئات المرضى

شَكلّ إيداع "جائزة" النقد ٢٠١١" الكوبيّة لليوناردو بادورا بفضل روايته "الرجل الذي أحبّ الكلاب"، إيذانا بما سيأتي. شكلّت اللحظة علامةً على وجوب الإنتباه إلى فساحة موهبة تأليفية أفصَحت عن الكثير وإن راوحت مكانها في جزيرة سُميت لأسباب جمّة، جزيرة الصمت. وإذ تُركن الآن إلى ليوناردو بادورا جائزة "أميرة أستورياس للآداب" ٢٠١٥ في إسبانيا، يجري التشديد على حقّ كلامه الأدبي في بلوغ المطرح حيث سُجّلت في السابق أسماء أمين معلوف وفيليب روث ومارغريت أتوود، من ضمن آخرين.

رجلٌ أحبّ الكلاب وروى مقتل تروتسكي

رلى راشد

بعد ثلاث نسخات من الإختفاء بالنصّ المتحدّث بالإنكليزية، يعود الإمتياز إلى الحاضنة القشتالية فيُكرّم كاتبا كوبيًا قارب زميل الحرفة الأميركي همنغواي (الذي خُصّص له مؤلفا) مُلاكما في الحياة كما في الأدب. إنخرط بادورا مثله في مباريات ومنافسة حيث الهزيمة محتملة تماما كما الربح. وليس خيار التخلّف عن اللحاق بالكتاب الكوبيين المنفيين أقلّ هذه التحدّيات صعوبة، بلا شك.

قرّر بادورا أن يغدو الكاتب الكوبي المُقيم وأن يصير بهذا المنطق سليل فئة على حدة لا يصلح أن يُنظر إليها على نحو تقليدي. منفى بادورا داخليّ في المقام الأول، أما الآخر الذي تفرضه الحيثيات السياسية فهامشيّ، ذلك انه اقتنع أن المنفى ليس لحظة راهنة وإنما حال مستمرّة تلاحقنا على مرّ الحكاية الشخصيّة. حين يتحدّث الروائي وكاتب السيناريو والناقد بادورا عن التوزّع بين الرغبة في مغادرة مسقطه كوبا وبين إرادة البقاء الواعية، يتراءى كأنه ينطق بإسمنا كلنا، نحن، أي سكان البُلدان المنمنمة في منطق الجغرافيا التي تستدرجها أقدارها إلى الخواتيم الحزينة.

لم يترك بادورا الأرض بالمعنى القوميّ ولم يترك مطرح الولادة بالمعنى المادي أيضا منتقيا المكوث في حيّ مانتيها حيث رأى النور والده كما جدّه، لتستمر السلالة. قرّر الكاتب البقاء بوعي تام، على ما يقرّ، ليتجنّب كأس الإقتلاع المواكبة للمَنافي دوما. سعى إلى جعل منجزه كُوبيًا بالمعنى الصرف لينبَعّ من تماسه مع واقعه فحسب ويتجنّب الإستناد إلى المنقول ويتفادى التأويل.

"اقنعة" و"مشهد طبيعي خريفي" و"غيمة الأمس" عناوين من بين سلسلة من المؤلفات أكّدت ان الحياة في كوبا، في تلك الشوارع الصاخبة حيث الحركة هي الأوكسيجين إلى جانب أشعة الشمس ربما، تستأهل التخلي عن النأي بالنفس.

ليس من السهل أن يصير كل سطر يكتبه ليوناردو بادورا فوينتيس، أو ليوناردو بادورا إختصارا، مقياسا للحرية في بلاده. من حيث لم يرغب، صار نصّه التخييلي بمثابة وثيقة. استطاع بادورا كما البهلوان أن يمشي على خيط رفيع فوق علو شاهق. إحترف المرونة في السياسة والتمكّن في الأدب. انها القدرة على الكتابة في تخفّ لفظيّ حيث الكامن بين السطور هو الأهم.

في مطلع رواية "الرجل الذي أحبّ الكلاب"، هناك اقتباسان يُحدّدان إطارها العام. يجيء في الأول "حدث ذلك حين ابتسم الموتى وكانوا سعداء لأنهم وجدوا راحتهم، أخيرا" أما في الثاني فنقرأ "الحياة... أكثر إتساعا من التاريخ". يواجه الأول استحقاق الغبطة ليسأل إذا كان القاطنون على الأرض أقل حزنا من قاطني النواحي الأخرى. أمّا الثاني فيلمح إلى ان التاريخ وأيا تكن جرعة التخييل فيه، لا بدّ أن يقصّر في مجاراة الحياة التي تليق بالبشر أكثر من سواها. والحال ان الرواية تتكىء على التاريخ لتعبُر منه إلى التخييل المعيش. تبدأ من خبر مصدره وكالة "تاس" السوفياتية مذيلا بتاريخ الثاني والعشرين من آب ١٩٤٠. نقرأ "ذكرت إذاعة لندن اليوم التالي: "في أحد مستشفيات العاصمة مكسيكو توُفي ليون تروتسكي بنتيجة كسر في الجمجمة تسبّب به إعتداء اقترفه أحد المقرّبين منه، في اليوم السابق".

يُطلق الخبر شرارة القصّ الذي يتقرّب من شاب شيوعي من كاتالونيا يُدعى رامون ميركادير إغتال الزعيم الماركسي البارز تروتسكي، بتكليف من الإستخبارات السوفياتية. لكن بادورا يتّخذ التاريخ ذريعة ليتلاعب به. يسلك المسار التوثيقي ليعيد اختراعه من دون الإنحراف تماما صوب الفانتازيا الخارجة على المنطق.

"الرجل الذي أحبّ الكلاب" عنوان يدلّنا إلى شخص أوْتمن على كمّ هائل من التفاصيل الخاصة بقاتل تروتسكي، رجل ارتاد الشاطىء المكسيكي مصطحبا كلبين روسيين ليفضي بكل ما يعرفه لكاتب ناشىء يدعى إيفان.

ها هنا حكاية تُوزّع الأدوار بين الضحايا والجلادين. ها هنا نصّ ينتمي الى الرواية التاريخية الجديدة التي لا تتوانى عن إظهار شَكّها بالحقائق الرسميّة.

"جائزة أميرة استورياس ٢٠١٥ للكاتب ليوناردو بادورا الذي احترف القطيعة مع التاريخ والذي يصرّ على رغم ذلك، على إنعاش فكرة اليوتوبيا".

عن العربي الجديد

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني
خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

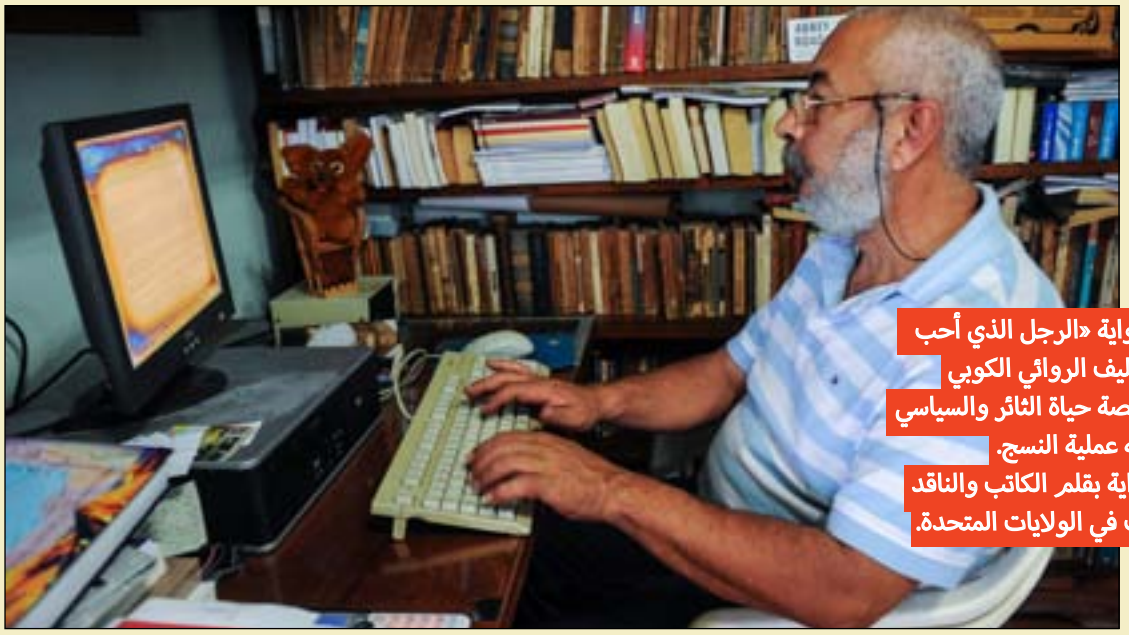

صدرت أخيرا الطبعة المترجمة الى الانكليزية من رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» (The Man Who Loved Dogs) وهي من تأليف الروائي الكوبي الشهير ليوناردو بادورا الذي يعيد من خلالها سرد قصة حياة الثائر والسياسي الماركسي الراحل ليون تروتسكي بأسلوب أدبي يشبه عملية النسج.
وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز عرضا نقديا للرواية بقلم الكاتب والناقد الروائي المكسيكي ألفارو إنريغي المقيم منذ سنوات في الولايات المتحدة.
وفي التالي ننقل ما كتبه إنريغي حول تلك الرواية:

رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» تسلّط الضوء على حياة تروتسكي

إذا كانت رواية «الحب في زمن الكوليرا» للكاتب غابرييل غارسيا ماركيز قد حولت الرواية الرومانسية الى أدب، فإن الروائي الكوبي ليوناردو بادورا – المعروف بأعماله البوليسية المثيرة للتشويق – قد وجد لنفسه مدخلا الى قانون الحداثة الاميركية اللاتينية من خلال كتابة رواية عن شخصية روسية.
فرواية «الرجل الذي أحب الكلاب» – التي نشرت للمرة الاولى في العام ٢٠٠٩ ثم صدرت أخيرا ترجمتها بالانكليزية – تسرد قصة حياة المنفى التي عاشها ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر الروسي ومفوض الشعب الروسي للشؤون الخارجية الذي اغتيل في المكسيك بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٤٠. والواقع ان الروح الروسية التي تميز هذه الرواية لا تنبع فقط من طولها الذي يقترب من ٦٠٠ صفحة ومن حقيقة ان سياقها السردي يعود باستمرار الى موسكو، ولكنها تنبع أيضا من شغف الرواية ذي الطابع التولستوي للاستغراقات التاريخية والمتعة ذات الطابع الدوستويفسكي في ما يتعلق بتفحص الحياة الاخلاقية لشخصيات الرواية.
في صيف العام ١٩٤٠، نجح شخص بلجيكي يدعى جاك مورنارد في اختراق الدائرة الداخلية الخاصة بـ«تروتسكي» وقام خلال زيارة قام بها الى منزل هذا الأخير في مدينة مكسيكو سيتي بطعنه بملقط ثلج في رأسه. وعلى الرغم من ان الطعنة أحدثت ثقبا عميقا في جمجمة تروتسكي واخترقت مخه حتى منتصفه، فإنه استطاع ان يطيح بمهاجمه أرضا والسيطرة عليه ونزع ملقط الثلج من يده، وبعد ذلك سقط منهارا.
وقد قضى مورنارد السنوات العشرين التالية لذلك في سجن مكسيكي. وفي الخمسينات اكتشفت الشرطة المكسيكية هويته الحقيقية، اذ اتضح ان اسمه هو رامون ميركادير. كان اسباني الجنسية وكان قد تلقى تدريبات على أيدي جهاز الـ«كي جي بي».
والواقع ان قصة ميركادير جديرة بأن تكون موضوعا لواحد من أكثر أفلام الاثارة جموحا. فلقد تم نقله من مدينة برشلونة الى موسكو خلال فترة الحرب الاهلية الاسبانية. وما ان وصل الى هناك، ثم تحويله الى «شخص بلجيكي مثالي». وبعد ذلك تم ارساله الى باريس كي يحاول اغواء كاتمة أسرار تروتسكي، النيويوركية سيلفيا أجيلوف. ثم جرى ارساله بحرا الى نيويورك بهوية كندية. ومن هناك أسس شركة وهمية في مدينة مكسيكو سيتي التي أنجز فيها مهمته في نهاية المطاف، ألا وهي قتل تروتسكي.
وبعد قضائه عقوبة السجن لمدة ٢٠ عاما في المكسيك، عاد ميركادير ليجد استقبال الابطال في انتظاره في الاتحاد السوفياتي. وهناك تزوج من المرأة المكسيكية ستالينية التي كانت حلقة الوصل بينه وبين جهاز الـ«كي جي بي» خلال فترة حبسه. وعاش ميركادير حتى أوائل السبعينات من عمره في بناية فخمة تطل على متنزه غوركي. لكنه قضى سنواته الاخيرة في كوبا التي مات فيها في العام ١٩٧٨.
وتعيد رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» سرد قصة حياة ميركادير بأسلوب متناسق مع لعبة القط والفأر التي لعبها ستالين مع تروتسكي منذ اللحظة التي طرد فيها تروتسكي من الحزب الشيوعي في العام ١٩٢٧ وحتى لحظة اغتياله. والواقع انها كانت لعبة شديدة العنف. فحتى عندما نجح عملاؤه في توجيه الضربة القاضية الى تروتسكي بملقط الثلج، كان ستالين قد سمح لنفسه بترف إبقاء تروتسكي على قيد الحياة لفترة كافية كي يسمع أخبار مقتل معظم أبنائه وكثيرين من أقاربه الآخرين.
وبالاضافة الى القصص الموازية الخاصة بميركادير وتروتسكي، فإن رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» فيها صوت ثالث، وهو صوت كوبي لشخص يدعى إيفان كارديناس، وهو كاتب محبط تنفجر حياته عندما يقابل رجلا اسبانيا منفيا خلال سيره على الشاطئ في العام ١٩٧٦، وهذا الرجل ربما كان رامون ميركادير. ومن خلال ميركادير، يتعلم ايفان عن تاريخ القرن العشرين ويقرأ أعمال جورج أورويل وتروتسكي ويصبح على دراية بأهوال الحقبة الستالينية.
وتسرد رواية بادورا هذه القصة الثلاثية دون ان تتخلى مطلقا عن التقاليد العامة الخاصة بالاعمال الروائية. واذ تهتم الرواية بالحياة الوجدانية الخاصة بأشخاصها أكثر من اهتمامها بأدوارهم التاريخية، فإنها تنضح مع ذلك بإحساس بالواقعية، وذلك بفضل تناولها المتعمق لكمية مذهلة من المعلومات عن حياة كل من تروتسكي وميركادير. والواقع ان هذا الامر لا يعيق مسار الرواية بل يجعلها بمثابة مشروع قراءة جاد الطابع. وهنالك إيقاع يشبه أجواء قاعة المحكمة في الاسلوب الروائي الخاص بالمؤلف بادورا، وهو الايقاع الذي يشبه كما لو ان هناك حاجة ملحة لتقديم دليل قد طغت على قدرته على عرض تفاصيل رقصة الموت التي كانت بين الضحية (تروتسكي) وقاتله.
وهناك أصداء متبادلة بين القصص الثلاث المتناوبة التي تسردها رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» وهي الأصداء التي تكتسب مزيدا من المغزى وهي تواصل رسم لوحة الفريسكو الكاملة المتعلقة بتهاوي معيار سياسي. فالمؤلف بادورا يشير الى انه على الرغم من ان شخصياته الرئيسية الثلاثة تلعب أدوارا مختلفة عن بعضها جدا، فإنهم جميعا ينتهي بهم المطاف ضحايا لآليات نظام ينبذهم جميعا ويتخلص منهم عندما لا تصبح لهم فائدة. فالثلاثة يحبون الكلاب، والثلاثة تحملوا معاناة الحبس وتقييد الحرية في السجون. لكن كل واحد منهم يصل في النهاية الى خلاصة مفادها ان إخلاصه للأفكار الماركسية قد حوله الى شبح.

× عن صحيفة «نيويورك تايمز»